# فكر مالك بن نبي
# والمجتمع الاسلامي المعاصر

أ. د. عمـار الطـالـبي
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعـة قطـر

## فكر مالك بن نبي والمجتمع الاسلامي المعاصر

الغـرض من هذه الورقة بيان تشخيص مالك بن نبي للظواهر التي تسود العالم الإسلامي المعاصر ، وتفسير منشئها ، وكيف يمكن الخلاص منها باعتبارها ظواهر تخلف .

ولكي نفهم تشخيصه لهذه الظواهر لابد من الإشارة إلى منهجه الذي طبقه على حقل دراسته الذي يهمنا هنا وهو المجتمع الإسلامي .

نظرة مالـك بن نبي إلى المجتمـع الإسـلامي نظرة تاريخية تطورية حركية شاملة ، وليست دراستـه دراسـة سكونية جزئية مقتصرة على مرحلة معينة من مراحل حركته التاريخية .

ويرتبط هذا بمنهجه الذي رسمه لنفسه ، إذ أنه يعتمد على الوقائع النفسية الاجتماعية المسجلة على صفحة الزمن في صورة حضارة أو ثقافة .

ويتحدد منهجه بنظريته في المراحل الثلاث التي يقع في حدودها المجتمع :

١ - مرحلة ما قبل التحضر .

٢ - مرحلة التحضر .

٣ - مرحلة ما بعد التحضر .

فكل مجتمع تاريخي عند مالك بن نبي - سواء كان مندثراً أو معاصرا - يأخذ مركزا محدداً على محور يمثل جميع مراحل تطوره التي حصرها في ثلاثة .

بيّن أنه قد جرت عادة المؤرخين وعلماء الاجتماع أن يميزوا بين المركز الأول والمركز الثاني ، ولم يهتموا بتمييز هذين المركزين عن المركز الثالث[١] . فكأنهم يرون أن مجتمع ما بعد التحضر هو مجرد مجتمع يواصل سيره في طريق حضارته ويرى أن هذا خطأ مؤسف يؤدي إلى أنواع من الخلط واللبس بتشويه المقدمات المنطقية التي يعتمد عليها الاستدلال في مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد وذلك في طرح مشكلات البلاد النامية ووضع حلول لها[٢] . ويستخدم هذا اللبس في مجال الصراع الفكري .

أزال مالك بن نبي هذا الخلط مبيناً أن مجتمع ما بعد التحضر ليس مجرد مجتمع لا يتحرك من مكانه ، وإنما هو مجتمع ينتكس في خط سيره ، أي أنه يسير إلى الخلف ، بعد أن انحرف بعيداً عن طريق حضارته ، وانقطعت صلته بها[٣] ، مستشهداً في ذلك بابن خلدون الذي وصف المجتمع الإسلامي وهو ينحدر إلى النوم والخمول وينفصم عن دورة الحضارة الإسلامية ، داخلا بذلك في عصر التخلف الحضاري للعالم الإسلامي ، (عصر ما بعد الموحدين) ، ومعنى هذا أنه ليس هناك مجتمع متحرك ، ومجتمع ساكن ، وإنما المجتمع متحرك لكن حركته قد تكون إلى الإمام وقد تكون إلى الخلف إلى الانحلال والتدهور .

انتقد على ضوء هذا جهل الفكر الأوروبي بقانون دقات ساعة التاريخ المزدوجة : الظهور والأفول ، ولذلك ذهب بعض علماء الاجتماع[٤] إلى التفرقة بين تصور الوقت في البلاد المصنعة ، وبين تصوره في البلاد النامية ، ومنها المجتمعات الإسلامية ، فهو متصل في البلاد المصنعة بحيث لا يتيح للإنسان أن ينفرد بنفسه ، أما البلاد النامية فهو منقطع على شكل عديد من الفراغات ، ولكن تفسير هذه الظاهرة ليس صحيحاً . إذ لم يتفطن صاحب هذا الرأي إلى أن هذه المبالغة في قيمة الوقت على أنه شيء من الأشياء في أوروبا والمبالغة في عدم تقدير الوقت في العالم النامي ترجعان إلى خصائص ثقافتين في مرحلة أفولها[٥] .

فالحضارة الغربية التي تهتم بتركيب الأشياء والأشكال ، وبالتركيب التقني والجمالي ، وبالكم والوزن عندما تنحرف نحو التطرف فإنها تقع في المادية بشكليهما : البرجوازي في مجتمع الاستهلاك ، والجدلي كما في المجتمع

---

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ١٣٩١هـ/١٩٧١ ، ص٤١-٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٤٣ .

(٤) في مؤتمر علم الاجتماع بفارنا Varna المصدر نفسه ، ص١٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص٢٠ .

السوفياتي ، ومن ذلك الافراط في تقدير الوقت مما يؤدي في النهاية إلى الإضرار بالكائن الإنساني وإلى نتائج قد تكون مدمرة .

أما الحضارة الإسلامية فمدارها الأصلي الذي كون خصائصها هو التأليف بين فكـرتـين . فكرة الحقيقة وفكرة الخير ، وعندما يميل الفكر الإسلامي إلى الأفول فإنه يغرق في التصوف والمبهم وعدم الدقة ، والتقليد ، والتفريط في تقدير قيمة الوقت مما يؤدي إلى تدمير نشاطه .

ومن النقد الذي يبين خطأ هذا المنهج في التفسير أيضاً نقد مالك بن نبي للمستشرق « جب » الذي قام منهجه على تحليل لا تاريخي وسكوني في دراسة المجتمع الإسلامي باعتباره مجتمعا راكداً حيث جعل بعض الظواهر التي عرضت للمجتمع الإسلامي في مرحلة ما بعد التحضر حقائق راسخة ملازمة معتمدا على تعميمات ومطلقات لأنه استخدم هو وأمثاله مفاهيم ومصطلحات غربية دون تحفظ .

فقـد وسم « جب » الفكـر الإسلامي « بالذرية » وجعل ذلك ظاهرة أو خاصية فطرية من خواص هذا الفكر مطلقاً في حين أنها ظاهرة عارضة من ظواهر المجتمع في مرحلة معينة من مراحل حياته الثقافية ، حينما يكون قبل التحضر أو بعـده ، كما كانت عليه أوروبـا من قبـل ديكارت ، وما أصبح عليه المجتمع الإسلامي بعد ابن خلدون ، ولم يلتفت« جب » إلى قدرة الفكر الإسلامي على التحليل والـتركيب والـوصول إلى القوانين سواء في مجال الفلك أو الفيزياء أو القانون (الأصول) أو في مجال علم الاجتماع[1] في أوج حضارته .

ويقصد مالك بن نبي « بالذرية » في الفكر الاتجاه إلى اعتبار الوقائع مجزأة منفصلة فردية دون رباط عضوي بينها ، فهي لا تكوّن حلقة من التاريخ وإنما

---

(١) مالـك بن نبي ، وجهـة العـالم الإسلامي ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ص١٦ .

هي أحداث جمعتها المصادفة فلا يستخرج منها أي قانون عام ، ولا ينظر إليها مَن خلال علاقاتها العضوية أو المنطقية في اطراد تاريخي ، تجعل الفكر يقدرها نتيجة للواقعة التي قبلها ، وعلة لما بعدها[1] .

ويبدو أن النظرة المركزية الأوروبية المتعالية على أعينها نظارة فلا ترى إلا ما تريد أن تراه ، ويبدو ذلك في عدة دراسات تناولت المجتمع الإسلامي[2] . لأن هناك أنماطا فكرية لا يمكن اعتبارها إنسانية شاملة تنطبق على جميع البشر ، بل ولا على المجتمع الواحد في كل مراحل حياته ، لأنها أنماط متنوعة وتختلف باختلاف السياق الحضاري أو الثقافي أو الاجتماعي لا لاختلاف عنصري في تركيب الحضارات .

إن التمكن من رؤية الآخر إنما تكون من موقع التفهم لا من موقع الكراهية أو الخوف أو الاستعلاء كما يفعل هؤلاء الباحثون الغربيون في دراساتهم للمجتمع الإسلامي وثقافته ودراساتهم للإنسان اللاغربي عموما ، فمنهم من يمثل عقلية فترة الاستعمار الأوروبي ، وموقف السلطة الغربية المهيمنة ، ومنهم من يمثل نزعة التعالي ، أو العلاقة بين « المتقدم » و « المتخلف » التي تختفي أحياناً وراء

---

(١) مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، دمشق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

2. Andre Servier, Islam and the Psychology of the Muslman, trans lated from French by A.S. Moss-Blundell (London: chapman and Hall. Ltd. 1924).
— Raphle patai the Arab Mind (New York: Scribenr, 1973).
— Carleton Stevens coon, Caravan: The story of the middle East (New York): Hott Rinchart, 1951.
— Cliddord Geertz, islam observed: Religious Development in Morocco and Indonesia, The terry lectures, V. 37 (New Haven, Coon: yale University Press, 1968.
— Daniel lerner, the passing of tradition - of society: Modernzing in the middle East (New York: Free press, 1458.
— Gustav Edmond von Grunebaum, Modern islam: The Search for Cultural identity (Berkly, calif. University of california press., 1962.
— Bernard Lewis Semites and Anti-semites:an inquiry into conflict and prejudice (New York: W. W. Norton, 1986.

المفاهيم العلمية الموضوعية ، والاصطلاحات التقنية في التحليل الحضاري والاجتماعي للمجتمع النامي ، والاتجاه إلى أنه لا يمكن له أن يتخلص من التخلف إلا بالتحديث على أساس النمط الغربي[1] .

من أهم أدوات التحليل الاجتماعي عِند مالك بن نبي نظريته في الأعمار الثلاثة للنمو النفسي الاجتماعي :

١ - عمر الشيء .

٢ - عمر الشخص .

٣ - عمر الفكرة .

فهو يلاحظ أن هناك أوجه تشابه بين النمو النفسي عند الفرد ، وبين النمو الاجتماعي في المجتمع ، غير أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى في المجتمع غير واضح وضوحه لدى الطفل ، فالإنسانية عموما من حيث تطورها النفسي تمر بثلاثة أعمار : عمر الطفولة حيث تصوغ أحكامها فيه تبعا لمقاييس تتعلق بعالم الأشياء ، فتكون أحكامها في أبسط صورها ناتجة عن الحاجة البدائية أو معتمدة على الحواس . وفي العمر الثاني تصبح تصوغ أحكامها تبعا لمقاييس خاضعة لمبدأ القدرة أي أنها صادرة عن عالم الأشخاص فلا تكون الفكرة حرّة من تجسيد في هذا الطور ، فقيمة الفكرة مرتبطة بالأشخاص الذين يجسدونها ، وإذا ما بلغت الإنسانية نضجها أو رشدها في العمر الثالث فإن الفكرة تصبح ذات قيمة في ذاتها دون سند من عالم الأشياء . أو عالم الأشخاص ، فيتحرر المجتمع من قيود معطلة لتقدمه الفكري والعلمي[2] ، ولذلك حذر القرآن الكريم من تجسيد الحقيقة الإسلامية في شخص الرسول ﷺ في قوله : «وما محمد إلا رسول قد

---

(١) هشام شرابي ، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٠ ، ص٤١ .

(٢) مالك بن نبي ، إنتاج المستشرقين ، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، مكتبة عمار للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص٤٥ .

خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» آل عمران الآية ١٤٤ . فهذه الآية دفعت المجتمع الذي نزلت فيه فيما يرى مالك بن نبي من طور الشيئية إلى عصر الفكر .

إن نشاط المجتمع تبعاً لنظرية الأعمار هذه ، نشاط مشترك يتداخل فيه عالم الأشياء مع كل من عالمي الأشخاص والأفكار ، إذ يشتمل هيكل هذا النشاط وإن كان بدائياً بالضرورة على البواعث من ناحية وعلى الطرق التنفيذية من ناحية أخرى ، بواعث ذات صبغة معنوية ، وأفكار عملية ذات طابع تقني ، وبالرغم من هذا التداخل والتشابك فإنه يظهر تفوّق جانب من هذه الجوانب في مرحلة معينة من تطوره ، وبهذا يتميز كل مجتمع عن غيره في تفكيره وسلوكه ، فعناصر النشاط في كل مجتمع في نهاية التحليل ثلاث فئات : فئة الأشياء ، وفئة الأشخاص ، وفئة الأفكار ، وتكمن جميع الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في شبكة منسوجة من هذه الفئات الثلاثة[١] .

وإذا كان المجتمع النامي يتميز بقلة الوسائل المادية ( الأشياء ) فإنه يتميز بقصور في الأفكار ، ويظهر هذا القصور في طريقة استخدامه بفاعلية أو عدم فاعلية الوسائل المتوفرة لديه ، وهو عاجز عن إيجاد غيرها ، ويتميز بصفة خاصة بطريقة طرحه لمشاكله أو عدم طرحها إطلاقاً[٢] .

ويضرب مالك بن نبي مثلا لذلك فيلاحظ أن أكثر الأراضي خصوبة في العالم وهي أراضي العراق وأندونيسيا لم تمكّن كلا البلدين من « الإقلاع » decol-lage الاقتصادي ، ويفسر ذلك بسبب قصور في الأفكار الذي يبدو أثره في السلوك السياسي والاقتصادي بصورة خمول عائق ، وهو أمر ناتج عن الخصائص النفسية الاجتماعية التي يتميز بها العالم الإسلامي في الوقت الراهن[٣] .

---

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٤١ .

فسرّ مالك بن نبي هذه الظاهرة إذن تفسيراً نفسياً اجتماعياً بالاعتماد على نظرية الأعمار الثلاثة ، وطبق هذا على المجتمع الإسلامي في تطوره ، فالبيئة الجاهلية قبل الإسلام مثلا تمثل مرحلة المجتمع وهو في عمر الأشياء أصدق تمثيل ، وهي من ناحية أخرى مرحلة ما قبل التحضر التي يكون فيها عالم الأشياء نفسه فقيراً ، وتكون الأشياء بدائية (خيمة ، وتد ، سيف . .) وقد انحصر عالم الأشخاص في المجتمع الجاهلي في حجم القبيلة ، وعالم أفكاره عالم بسيط شأنه شأن عالم أشخاصه ، فكان هذا المجتمع الجاهلي منطوياً على نفسه تتلاشى على سواحله حركة المد والجزر التاريخية للأمم العظمى المجاورة .

ولما جاء الإسلام قضى على عزلة هذا المجتمع الجاهلي ، فظهر مجتمع جديد ، يصنع التاريخ ، بهدم ما بداخله من حدود قبلية ، وأسس عالما جديداً من الأشخاص وأصبح كل شخص يحمل رسالته التي أعلنت ظهور عالم ثقافي جديد ، تكون الأشياء فيه في خدمة الأفكار ، وبذلك تأسس عالم الأشخاص في مجتمع الأنصار والمهاجرين على أساس الأخوة في مدينة فاضلة أصبحت هي الصورة المثالية النموذجية للأجيال الإسلامية طوال تعاقبها . ثم اتجه هذا المجتمع نحو عالم الأفكار وتواصل الامتداد إلى أن انتكس فجمدت الفكرة ، وانقلب السير إلى الوراء ، وارتدت الأعمار السابقة في اتجاه عكسي ، فلم بعد عالم الأشخاص على هيئة النموذج الأصلي ، بل أصبح في صورة المتصوفة والدجالين والمخادعين على اختلاف أصنافهم ، وفي مقدمتهم في زماننا هذا صنف « الزعيم » ، وتبعاً لنظرية مالك بن نبي في النموذج الثقافي والجمالي ، والنموذج الثقافي الأخلاقي فإن الثقافة التي تعطي الأولوية للمبدأ الأخلاقي مثل الثقافة الإسلامية تؤول في نهاية الانحلال إلى التحجر والجمود ، وإلى فضيحة صامتة حالكة تتيه في مجاهل تصوف متقهقر مجنون ، يقود جنونه مشايخ الطرق ، كما أن الثقافة التي تعطي الأولوية للذوق الجمالي مثل الثقافة الغربية تنتهي إلى فضيحة حمراء . . . يقود جنونها رجل مثل نيرون أو امرأة مثل (Messaline) فتسيطر عليها

دوافع الأنوثة[1] .

وفي مرحلة الانتكاس لا يكون عالم الأشياء بسيطا متواضعا ، كما كان في الجاهلية ، بل يكون مستبدا بالعقول ، ويمكن أن تكون « الأشياء » تافهة ، ولكنها براقة ، وقد تتكلف كثيرا إذا كانت لا تأتي إلا من الخارج ، فقد يصبح المجتمع في هذه المرحلة مكتظاً بالأشياء ، ولكنها خالية من الحياة والحركة الديناميكية الاجتماعية ، وبالجملة فإنه أصبح كالطفل الذي يبدأ باكتشاف عالم الأشياء ثم يكتشف عالم الأشخاص ثم عالم الأفكار ، وعندما يشيخ ينتكس فلا يعود يهتم بالأفكار لفقدان القدرة الإبداعية ، ويترك عالم الأشخاص فلا يبالي بهم ، وفي النهاية يعرض عن عالم الأشياء نفسه لضعفه وفقدان الرغبة فيه ، كما صور لنا القرآن ذلك في قوله تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ الروم ٥٤ .

ويلاحظ مالك بن نبي أيضا أن العمر النفسي الحالي للمجتمع الإسلامي لا يزال يضع فاصلا بين عالم أفكاره ، وبين واقعه الاجتماعي ، ولذلك فقدت أفكاره الموضوعة في مجال السياسة مثلا وظيفتها في التطبيق العملي[2] .

ومن أهم الأدوات التحليلية التي عالج بها القيم النفسية الاجتماعية ، والطاقة الحيوية في منهجه التطوري الحركي نظريته في الدورة الحضارية ، ونظريته في شبكة العلاقات الاجتماعية باعتبارها أول عمل يقوم به مجتمع تاريخي .

ونريد هنا أن نشير إلى نظريته في الدورة الحضارية التي تتصل بنظرية المراحل الثلاثة ، وبنظرية الأعمار الثلاثة أيضاً إذ كلها قائمة على نظرية حركية لنشاط المجتمع خلال تطوره التاريخي .

فالمجتمع فيما قبل التحضر تظهر فيه فكرة حية تطبع فيه الدفعة الأولى التي تجعله يدخل التاريخ ، فيكون للأفكار في فترة دخول المجتمع التاريخي دور

(١) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٢) مالك بن نبي ، المسلم في عالم الاقتصاد ، دار الشروق ، بيروت (بدون تاريخ) ص٩٣ .

وظيفي فعال ، ومن ثم فإن القدرة على القيام بالوظيفة هي طريق الحضارة .

ويعرّف مالك بن نبي الحضارة تعريفا وظيفياً فيرى : « أنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه »[1] ولذلك فإن إرادة المجتمع التي تنبثق من الشروط المعنوية ، وقدرته على الانجاز هما الأمران اللذان يضيفان على وظيفة الحضارة موضوعية وفعالية بحيث تصبح جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتقدم الفرد موضوعية أي أنها تتحول إلى سياسة وتشريع وواقع .

ويمكن القول بأن مالك بن نبي اكتشف بعض الاتجاهات العامة التي تحكم حركة المجتمع في أعماقه التاريخية ، وهو مستوى عال من التجريد فذهب إلى أن القيم النفسية الاجتماعية لإحدى الحضارات تتحرك خلال الأطوار الحضارية المختلفة كما بينها في الرسم البياني التالي :

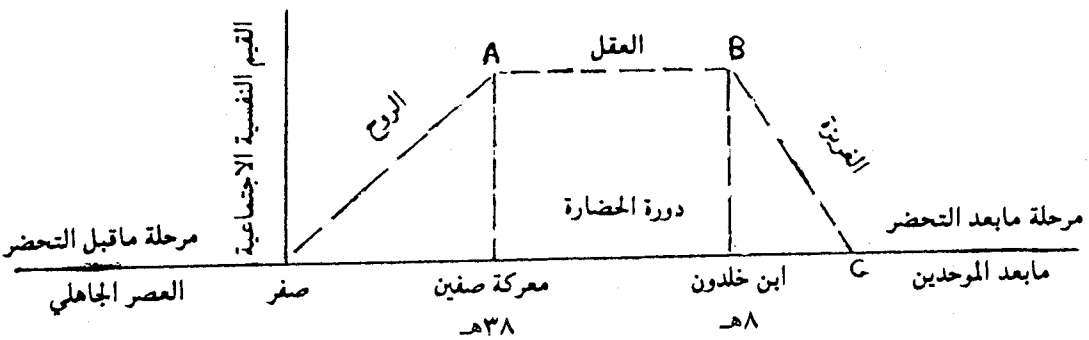


تأتي إرادة المجتمع فتطلق فعالية العوامل المعنوية من نقطة الصفر إلى أن تصل إلى الذروة (A) وهي المرحلة الروحية[2] .

تتغير معالم الحياة النفسية الاجتماعية بتحول الإنسان نفسه في إرادته واتجاهه وذلك عندما يعيي معنى جديداً لوجوده في العالم[3] ، فالتغير الاجتماعي متوقف

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص٥٠ .
(٢) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص ٥٢ .
(٣) المسلم في عالم الاقتصاد ص٦٩ .

على تغير في مبررات الوجود في المجال النفسي ، ومن ثم فإن تعريف الحضارة الوظيفي يجعلنا نرى فيها جانبين : الجانب الذي يتضمّن شروطها المعنوية في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد رسالته الاجتماعية وإنجازها ، والجانب الذي يضمن شروطها المادية في صورة إمكان فيضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بوظيفته أي بالوظيفة الحضارية ، فالحضارة هي هذه الإرادة ، وهذا الإمكان وهي الصورة الحسية لهذه الإرادة ولهذا الإمكان ، والعلاقة بين الإرادة الحضارية والامكان الحضاري علاقة سببية تكون الإرادة بمنزلة السبب بالنسبة للإمكان ، فالأمة الإسلامية بدأت من نقطة الصفر بالنسبة للإمكان إي الوسائل ، ولكن إرادتها بدت قادرة على أداء مهماتها العظمى بوسائلها المتواضعة المتوفرة ، كأن معامل ضرب Coefficient عمل في فعالية وسائلها البسيطة فأصبحت كافية لإنجاز مهماتها ولإكمال هذه الوسائل في آن واحد[1] .

أما من حيث قدرة المجتمع فإنها تطلق فعالية العوامل المادية ، وتجعله مؤهلاً لأداء وظيفته ، وهذه القدرة مرتبطة بقوة إرادته وبحماسه الذاتي ، أو ما يسميه مالك بن نبي «التوتر» وبمعنى آخر فإن نوعا من الحيوية الاستثنائية هو الذي يميز المجتمع في مبدأ حضارته ، وهذه الحيوية هي التي تميز بينه وبين مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر ، المبينة في الرسم وهي الواقعة ما بين الحرفين A , B حيث يتوازن عالم الأشياء وعالم الأفكار ، ثم يأخذ يميل تدريجياً إلى تفوق « الشيء » على « الفكرة » وخاصة المرحلة B . C .

وهذا التوتر أو الحماس هو عبارة عن فكرة دافعة لا يمكن تعليمها بنظرية ولا بأي شكل تعليمي ، ولا يدّعي العلم أنه يصنعها في النفوس[2] .

ويفسر ذلك مالك بن نبي تفسيرا نفسيا فالفرد يكون في أحسن ظروفه التي

(١) نفس المصدر السابق ص٧٢ .

(٢) مشكلة الأفكار ص ٥٤ .

يكون فيها نظام أفعاله المنعكسة في أقصى فاعليته وتكون طاقته الحيوية في أتم حالات تنظيمها وتوجيهها . كما يفسر هذا التوتر تفسيراً اجتماعياً بأنه يتفق مع أكثر حالات شبكة علاقاته الاجتماعية كثافة ، لا في أكثرها امتداداً ، وهو ما عبّر عنه القرآن بالبنيان المرصوص في قوله تعالى : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ الصف ٤ .

ويمتاز المجتمع في هذه المرحلة بميزتين هما : أن قواه كلها في حركة ، وأن هذه الحركة صاعدة دوما[١] .

أما الطور الثاني فهو طور العقل وهي المرحلة التي يتمتع فيها المجتمع بشبكة من العلاقات الاجتماعية في أكثر حالاتها امتداداً وسعة ، في حين تكون في بعض الشوائب قد بدأت تطل برأسها ، وتكون بعض جراثيم الأمراض الاجتماعية قد شرعت في التكوّن (شعوبية في المشرق ، ظهور دولة الأغالبة في شمال أفريقيا في العهد العباسي) وذلك إثر صدمة معركة صفين التي جعلت الفرد المسلم لا يتصرّف في كل طاقاته الحيوية أي أن جانباً من غرائزه لم يعد يخضع لرقابة نظام أفعاله المنعكسة ، ولم تكن كل قوى المجتمع في حركة ، وما كان منها في حركة ، فحركته أفقية ، غير صاعدة رأسياً ، بل أن جانباً من الطاقة أصبح في سكون ، (المرجئة) يعمل في اتجاه مضاد للمثل الأعلى للمجتمع ، ومعنى ذلك أن الخصائص النفسية والاجتماعية أضحت تحت سيطرة العقل متجهة نحو المشاكل المادية[٢] .

أما في الطور الثالث من الدورة الحضارية فإن الغرائز تتفكك فيها ، ولا تعمل في توافق ولا انسجام ، متجهة إلى صالح الفرد ، وبذلك يختل نظام الطاقة الحيوية ، وتسود الفردية ، وتتفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية ، وهو ما يسمى

---

(١) ميلاد مجتمع ص٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص٥٤ .

في التاريخ بعصر الانحطاط ، حيث تتحرر الغرائز من سلطان الروح والعقل ، (ملوك الطوائف) ، وهذا العصر هو الذي تهيأ فيه المجتمع الإسلامي لظاهرتين تمكنتا منه بعد ذلك وهما : القابلية للاستعمار والاستعمار فعلاً .

فتفسير مالك بن نبي يقوم إذن على أن تاريخ أي مجتمع ليس إلا تاريخ شبكة علاقاته الاجتماعية ، التي تصنعها في البداية فكرة دينية ، فالدين يصنع شبكة العلاقات الروحية التي تربط أنفس المجتمع بالإيمان بالله ، وفي الوقت نفسه يربط أفراد المجتمع بشبكة أفقية من العلاقات ، التي تتيح له أن يقوم بنشاطه المشترك ، الذي يقوم في أساسه على نظام الانعكاسات ، الذي يغير سلوك الفرد ، بتوجيه طاقاته الحيوية ، وهذا التغيير النفسي ، هو شرط في كل تغيير اجتماعي ، ضروري لإحداث التركيب العضوي التاريخي بين العناصر الاجتماعية الثلاثة : الإنسان والتراب والوقت .

فالمجتمع الإسلامي المعاصر إنما « هو اليوم في مرحلة ما قبل التحضر من جديد »[1] هذا ما يقرره مالك بن نبي ، وينتهي إلى القول بأن المجتمع «الإسلامي الحاضر يعتبر حقل دراسة يقدم ملاحظات عظيمة الأهمية لعالم الاجتماع ، الذي يدرس مثل هذه المسائل» المتعلقة بدراسة جدلية عالم الثقافة في عناصره الثلاثة : عالم الأشخاص وعالم الأشياء وعالم الأفكار في حركتها ، لأن خصائص هذه الحركة تكون تابعة للعلاقات الداخلية التي تقوم بين عناصرها في عالم الثقافة ، فهي متداخلة ، ولكن الجدلية الداخلية هي التي تحدد طبيعة هذا التداخل في نشاط المجتمع[2] ، بما يتناسب مع كل طور من أطوار حركته .

فتارة تتوازن ، وتارة يختل توازنها لصالح طغيان أحد عناصرها على الباقي ، ويرى أن أهمية دراسة المجتمع الإسلامي لا ترجع إلى الفائدة العلمية النظرية

---

(١) مشكلة الأفكار ص٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ص٩٧ .

فحسب ، وإنما يأمل الباحث المسلم الذي يشخص الأمراض الاجتماعية في البلاد الإسلامية ، أن تصل هذه النتائج التي ينتهي إليها من يملك وسائل علاج هذه الأمراض ، وهم قادة السياسة ، وقادة الثقافة[1] .

لذا دعا مالك بن نبي إلى تأسيس علم اجتماع خاص بمرحلة استقلال الشعوب الإسلامية التي عرضت لها حالات مرضية ، للكشف عن العوائق التي عرقلت الإنجاز[2] وعن مصدرها ، فالمشكلات متشابهة في الأوطان الإسلامية[3] . لاحظ مالك بن نبي أن المجتمع الإسلامي بذل جهوداً كبيرة كي يتحرك من جديد ، ولكن إقلاعه «Decollage» يظهر بطيئاً إذا قورن بغيره من المجتمعات المعاصرة ، كالمجتمع الياباني والصيني .

والذين حاولوا أن يفسروا هذا البطء فسروه بنوعين من العوائق ، فالذين يدافعون عن الاستعمار أرجعوا سبب تأخير هذا « الإقلاع » إلى الإسلام نفسه ، وعزاه القوميون إلى الاستعمار ، ويرى مالك بن نبي أن كلا التفسيرين خطأ جسيم ، وأنهما يعتمدان على الغموض واللبس ، فالتفسير الأول الذي يحمل الإسلام المسؤولية ، تجاهل حقيقة واضحة وهي أن الاستعمار مسؤول عن أكثر ما أصاب العالم الإسلامي من الفوضى ، التي عمت البلاد الإسلامية اليوم ، أما أصحاب التفسير الثاني فهم يلقون اللوم كله على الاستعمار ، محاولين إخفاء سياسة التملق التي يطبقونها في المجتمع ، ويخدّرون بها الشعوب الإسلامية ، كي يلفتوها عن إدراك مسؤوليتهم عن ورطتهم الراهنة ، ويلقوا المسؤولية على كاهل الاستعمار ، فكيف ينسى دور الإسلام في بناء أعظم الحضارات ، أو كيف يتجاهل أيضاً أن البلاد التي لم تستعمر كانت أكثر تخلفاً[4] ، ويرى أنه من أجل

---

(١) المصدر نفسه ، ص٩٧ .

(٢) مالك بن نبي ، بين الرشاد والتيه ، دار الفكر ، دمشق ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ص٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٣٧ .

(٤) مشكلة الأفكار ، ص٩٨ .

أن يكشف الباحث المسلم عن الجذور الاجتماعية للفوضى التي تسود العالم الإسلامي اليوم لا يجوز له أن يتحيز ويجب عليه الإنصاف .

والواقع أن كل مجتمع ينمو في التاريخ يتعين أن يواجه اتجاهات تدفع به إلى اختلال التوازن ، ويعاني المجتمع الإسلامي اليوم أكثر ما يعاني بسبب أنه لم يخطط لعصر نهضته التخطيط المدروس ، الذي يدخل في اعتباره عناصر التعطيل التي أصيب بها .

ويشترك قادة الفكر وقادة السياسة في أنهم لم يفكروا في تكوين جهاز للنقد والتحليل ، ليراقبوا خط سير المجتمع ، الأمر الذي أدى بحركة المجتمع الإسلامي التاريخية إليأن تسير من غير مقاييس فعالة وفي فوضى فكرية ، فواجهته صعاب كثيرة عاقته في طريقه ، وأدى ذلك إلى ضياع في الوقت ، وتبديد في الوسائل ، وإلى انحرافات متعددة ، ويعود هذا كله إلى عدم تماسك الأفكار في هذا المجتمع ، وإلى طغيان الأشياء أو الأشخاص[1] . أي اختلال التوازن بين عناصر عالمه الثقافي في حركته .

إن مفتاح دراسة مالك بن نبي لمشكلة الأفكار في المجتمع الإسلامي إنما هو هذه المشكلة ، وهي عدم تماسك الأفكار ، سواء في تحديد المفاهيم ، أو في العلاقات المنطقية بينها .

ويرى أن كل خلل يصيب المجتمع الإسلامي فإن مصدره يعود إلى خلل في عالم الأشخاص أو خلل في عالم الأفكار ، أو خلل في عالم الأشياء ، أو خلل في علاقات هذه العوالم فيما بينها[2] .

والأفكار إما أن تكون أفكاراً من شأنها أن تغير أحوال الناس ، وإما أفكاراً من شأنها تحويل الأشياء ، فالنوع الأول ذو قدرة على تكييف الطاقة الحيوية عند البوادر الأولى لنشأة الحضارة ، أما الأفكار الثانية فهي ذات قدرة على تكيّف

(١) المصدر نفسه ، ص٩٩ .

(٢) تأملات في المجتمع العربي ، مكتبة دار العروبة ، ١٩٦١ ، ص١٩ .

المادة ، وخاصة في الطور الثاني من دورة الحضارة ، وتعود قدرة الأفكار على تغيير أحوال الناس إلى مصدرها القدسي الذي ينشأ عنه عالم الثقافة ، بل إن الأفكار التي تبدو وضعية تبحث لها دائماً أيضاً عن سند من القيم الروحية المقدسة ، ليقدم لها حوافز قوية تتمكن من مساندة المجتمع الناشىء وقت انطلاقه[1] ، وذلك لأن الأفكار سواء كانت تتعلق بالنظام الأخلاقي أو بإدارة النظام المادي لها لحظة إشراقها وقت دخول العالم الثقافي ، وتبقى للأفكار أهميتها في دفع حركة المجتمع مادامت مرتبطة بالنماذج المثالية Archetypes ، وهي التي تمثل في عالم الثقافة القوالب التي تسبك فيها الأفكار المتمثلة في أوجه نشاط المجتمع[2] ، وتطبع فيها .

ولكن مرّ الزمن يعمل ليطمس نتوءات هذه القوالب كما يقع في المطبعة ، فتكون الأشكال التي تصدر عن هذه القوالب صورا باهتة للنماذج المثالية ، فالأفكار الأولى (النماذج ، القوالب) هي التي يسميها مالك بن نبي «الأفكار المطبوعة» ، والثانية التي تصدر عنها باهتة مبتعدة شيئاً فشيئاً عن نماذجها يسميها «الأفكار الموضوعة» . وهذا الاختلاف بين الأفكار المطبوعة الأصلية ، وبين الأفكار الموضوعة التي أضافتها الأجيال المتعاقبة يمثل خيانة الأخيرة للأولى ، مما يؤدي إلى أن يتعرض نشاط المجتمع إلى انتقام الأفكار المطبوعة من الأفكار الموضوعة المنحرفة عنها ، وإذا كان من الممكن إدراك هذا الانتقام في الأمور التقنية فورا وبوضوح ، كما إذا صممّ جسر خطأ فينهار ، فإن المجتمعات أيضاً قد تنهار بهذه الطريقة نفسها ، وإن لم يكن ذلك واضحاً في مصدره ، فكوارث التاريخ - كما يقول - ليست إلا من أثر انتقام الأفكار المخذولة[3] .

ومعنى هذا أن كل ما يصيب روابط الأفكار فيما بينها أو فيما بينها وبين عالمي

(١) مشكلة الأفكار ، ص٧٢ - ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٧٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٧٦ .

الأشخاص والأشياء ، لابد أن ينتج عنه اضطراب في الحياة الاجتماعية ، والسبب الأصلي في ذلك كله هو انفصام الأفكار عن نماذجها المثالية ، فعندما تختفي من نفوسنا أفكارنا المطبوعة ، وتصبح أفكارنا الموضوعة لا شكل لها ولا نسق ولا نفع ، نكون قد دخلنا مرحلة تموت فيها الأفكار ، وتصبح العقول فيها خاوية ، واللغات عاجزة ، ويعود المجتمع إلى الطفولة ، وتظهر في هذا المجتمع ظواهر غريبة يستند إليها ليتمكن من تعويض قصوره في الأفكار ببدائل ، لا تغني عن عدم تماسك الأفكار شيئاً ، فتعلو نبرات الصوت كي يعوّض النقص في البرهان ، كما يفعل الأطفال ، وتسود البلاغة الثقيلة المتكلفة في الأدب ، ويتضخم استعمال أدوات التفضيل ، والتشدق بالنعوت الضخمة ، وتطغى العواطف والفخامة ، وحشو الكلام والغموض ، ويؤدي عدم تماسك الأفكار وتخلخل العلاقات المنطقية إلى كل أنواع اللبس في العقول ، فتصبح عاجزة عن التمييز في السياسة بين الأسباب ومسبباتها ، فكان من نتيجة ذلك أن طرح المجتمع الإسلامي مشكلة الاستعمار ، وأهمل مشكلة «القابلية للاستعمار» التي هي سبب وجوده .

ويشبّه مالك بن نبي عالم الأفكار المطبوعة (النماذج) باسطوانة لها أنغامها الأساسية أي نماذجها المثالية ، ويشبه الأفكار الموضوعة بالتوافقات الموسيقية التي تخص الأجيال والأفراد ، ويرى أن العلاقات بين هذه الترددات الأساسية وتوافقاتها وثيقة بحيث أنه إذا سكتت الأولى أدى ذلك حتما إلى اختفاء الثانية[1] ، فالانحراف إذن يؤدي إلى تآكل اسطوانة عالم الثقافة ، وإلى سماع أنغام ناشزة ، وترددات مزعجة ، وحشرجة ، ثم يتوقف لحن الأفكار ، وتتلف الأسطوانة ، إلى أن يحل الصمت التام ، ويختفي العنصر الروحي من اللحن مع اختفاء النماذج المثالية ، وتصبح الأفكار الموضوعة مبتورة الجذور من الثقافة الأصلية ، فيأتي

---

(١) المصدر نفسه ، ص٨٤ .

عليها الصمت ، ولا تستطيع أن تعبّر عن شيء ، بذلك ينحل المجتمع في هذه المرحلة ، ويتحول إلى ذرات لانطفاء الدوافع الجماعية[1] ، كما رأينا ما وقع للمجتمع الإسلامي ، إنه عهد الأفكار الميتة ، فقد عاش المجتمع الإسلامي فترة مجيدة حين ميلاد الحضارة وظهور الأفكار المطبوعة في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، وسرعان ما اتسعت الأفكار الموضوعة في عصر دمشق وبغداد والقاهرة ، ثم عاد في وقتنا الراهن ليخيم عليه صمت الأفكار الميتة .

ومن ظواهر المجتمع الإسلامي المعاصر أنه حينما يحاول أن يبعث عالمه الثقافي المشحون بالأفكار الميتة فإنه يستعين بأفكار قاتلة بدورها اقتبسها من حضارة أخرى ، لأن هذه الأفكار قاتلة وهي في مواطنها ، وعندما تنسلخ من محيطها فإنها تصبح أشد فتكاً ، لأنها تترك مضادات السميات التي كانت تخفف من ضررها في موطنها الأصلي مع جذورها ، وبهذه الطريقة أخذ المجتمع الإسلامي المعاصر في اقتباس الأفكار الحديثة «التقدمية» من الحضارة الغربية . وتبعاً لنظريته الجدلية بين الأشخاص والأفكار والأشياء التي كونت المجتمع الإسلامي المعاصر ، فإن موقف الاقتباس موقف طبيعي بالنسبة لمرحلته الحالية ، ولكن ما هو غير طبيعي ، هو جمود المجتمع الإسلامي المعاصر في هذه المرحلة ، وخموله الشديد ، كأنه يميل إلى الخلود فيها ، بالنظر إلى مجتمعات بدأت حركتها في نفس الوقت ، فتخلصت من ركودها ، ويذهب مالك بن نبي إلى أن المجتمع الإسلامي إنما يدفع في هذه المرحلة ثمن خيانة نماذجه المثالية ، فالأفكار المخذولة والأفكار المستوردة أخذت تنتقم بشراسة . وهو يعبّر عن ألمه وأساه حين يرى المسلم يتمزق إلى شطرين : مسلم يمارس عبادته داخل المسجد ، ولكنه عندما يخرج منه يصبح غارقا في عالم آخر .

وهذه الظواهر يسودها عرض أساسي وهو عدم تماسك الأفكار في العالم

---

(١) المصدر نفسه ، ص٨٩ - ٩٠ .

الثقافي ، وهذا القصور في الفكر يظهر أثره في المجال السياسي والاقتصادي في صورة خمول عائق[1] .

وإذا كان العالم الإسلامي في وضعه الراهن من تطوره متعلقا «بالأشياء» لا «بالأفكار» فما ذلك إلا لأنه على ضوء سيكولوجيا الطفل ، مايزال في طور الطفولة ، فالطفل لا يرى في عالمه «أفكاراً» وإنما يرى «أشياء» وهذه الظاهرة النفسية واكبها في المجتمع الإسلامي الميل إلى السهولة ، فشراؤه لثلاجة مثلاً أسهل عليه من الحصول على الأفكار الضرورية لإنتاجها[2] .

وإذا كان العالم الغربي يتجه إلى تنمية كمية الأفكار ، فإن العالم الإسلامي يتجه بالعكس من ذلك إلى مضاعفة الأشياء والحاجة إليها فحسب . والسبب في ذلك كله أن الأفكار ليس لها فعاليتها في العالم الإسلامي ، فزاد ذلك من حجم الأشياء أكثر مما زاد من حجم الأفكار ، فانقسمت حياته النفسية إلى عالمين منفصلين فهو يعيش في «عالم غريب له منه أشياؤه وليس له أفكاره» ، ونتج عن ذلك التقليد أيضاً تقليد الغرب فاشترى «الأشياء» من غير فهم «للأفكار» التي تمثلها ، فأصبح يتخبط في فوضى من الأشياء والأفكار منفصلة ، بدون أي تنظيم بينهما ، حتى إذا فرضت عليه مقاييس الأشياء ، وتمثل أفكار منتجيها ، فإنه لكي يتحمل الثقل الساحق لضغط الأشياء ، ويستوعب الأفكار التي تهدد شخصيته وبقاءه يلجأ إلى طلب فتوى المشايخ ، أو يأخذ بأفكار في الوقت نفسه الذي اختفت من عالمها الأصلي ، وتقادم عهدها ، وقد يؤدي ذلك إلى اضطراب أخلاقي ، فيذهب بعض المثقفين إلى أن الإسلام قد فات أوانه ، وأنه يتعين استبداله ، وينادي بعضهم بالعودة إلى الإسلام باعتباره السبيل الوحيد للنجاة ، ويؤدي ذلك إلى صراع ووهن في الرأي ، وإلى السخط والتطرف في وجهة

(١) المصدر نفسه ، ص٩١ .

(٢) فكرة كومنولث إسلامي ، سلسلة الثقافة الإسلامية ، المكتب الفني للنشر ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م ص٧ .

النظر[1] .

ولو طبقنا هذا على التطور الاقتصادي للعالم الإسلامي منذ قرن ، لرأينا اتجاهه هذا إلى الأشياء قد أدّى إلى إعواز أي زاد من حاجاته دون أن يزيد من وسائله .

ويرى مالك بن نبي أن المجتمع الإسلامي إذا حللنا أوضاعه الحاضرة من وجهة النظر النفسية الاجتماعية فإننا نراه يواجه «الشيئية» التي تعبر عن طغيان «الشيء» في عالمه الثقافي ، وذلك بسبب ندرته ، مما يولد مركب الحرمان ، ويؤدي إلى التكديس ، الذي يتخذ في المجال الاقتصادي صورة التبذير ، وتبديد الإمكانات ، وهذا الطغيان قد يكون في المجتمع المتحضر أيضاً ، ولكنه طغيان «الشيء» بسبب وفرته ، فالمجتمع المحروم يستسلم لسيطرة الأشياء التي حرم منها ، والمجتمع المكتظ بها يتمرد على سيطرتها[2] ، وذلك يؤدي إلى هذا المرض ، وقد ظهر هذا أيضاً في الاتحاد السوفياتي ، وهو أقل درجة في الاستهلاك[3] من العالم الغربي ، فأصبح الأمر ليس في صالح «الفكرة الماركسية» وإنما لصالح «الشيء» ، وبيّن من خلال دراسته لبعض الوثائق المتعلقة باتجاه الفكر في الاتحاد السوفياتي أنه يقع في وقت حرج من ثقافته ، حيث بدأ «الشيء» يمارس طغيانه[4] ، وبذلك فقد هذا المجتمع بعض الألحان المطبوعة التي ألهمت لحظات بنائه ، ودخل المرحلة الثانية من التحضر ، فوجد أن بعض ألحانه الأساسية أخذت تتآكل ، وتختفي من أسطوانة عالمه الثقافي[5] ، كما وقع للمجتمع الإسلامي يوم أن بدأ انفصام الروابط في قلب عالمه الثقافي ، فأعلن عقيل بن أبي

---

(١) المصدر نفسه ، ص٢٤ .

(٢) مشكلة الأفكار ، ص١١١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١١٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١١٨ - ١١٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص١٢٠ .

طالب أخو الإمام علي رضي الله عنه ، قوله «إن صلاتي مع علي أقوم لديني ، وطعامي مع معاوية أقوم لحياتي» ، مناقضاً بذلك المبدأ المطبوع الأصيل : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ الأنعام آية ١٦٣ . فهذه الحياة النفسية المنقسمة بين الطعام والصلاة عرض من الأعراض التي تشير إلى بداية صراع «الفكرة» و «الشيء» وواصل ذلك الانفصام طريقه إلى أن انزلق المجتمع الإسلامي بعد أن فقد توازنه ، فانحدر إلى عصر ما بعد التحضر .

وعندما تحتل «الأشياء» الذروة في سلم القيم تنتقل الأحكام النوعية في المجتمع إلى أحكام كمية ، وتقوم كل الأمور بمقياس الأشياء ، وتطرح المشكلات في خصائصها الكمية ، وتصاغ الحلول أيضاً في صيغ كمية ، فإذا سألت مؤلفاً عما ألف يجيبك أنه ألف كتاباً يتكون من كذا صفحة[1] ، ويربط السياسي طاقة مجتمعه في مشكلة التنمية باستثمار أموال أجنبية أو زيادة الضرائب ، مما يؤدي إلى شلل في النشاط الفردي والاجتماعي .

ويبدو اختلال التوازن أحياناً أخرى في طغيان «الشخص» على «الفكرة» وعندما يكون الطغيان لصالح «الشخص» يصبح الاختلال جوهريا ، فتستبعد «الفكرة» وتركز في شخص واحد ، وتصبح العلاقة بينهما في حالة تطرف هي علاقة الفكرة بالوثن ، كما وقع لشخص موسوليني في إيطاليا ، وهتلر في ألمانيا[2] .

وضرب مثلا لهذا أيضاً بالمؤتمر الإسلامي الجزائري الذي وقع سنة ١٩٣٦ بالجزائر ، كان الناس بالجزائر مرتبطين بأصحاب الطرق الصوفية في عصر ما بعد التحضر ، فكان الوثن هو الذي تقصده أرواح معطلة ، لالتماس البركة ، وفي سنة ١٩٢٥ اختفى الدراويش ، وأصبحت العلاقة بين الفكرة وبين الشخص لصالح الفكرة الإصلاحية ، وبلغت أوجها في الجزائر سنة ١٩٣٦ ، ولكن لم

(١) المصدر نفسه ، ص١٠٠ وذكر عدة أمثلة واقعية لا نريد الإطالة بذكرها فليرجع من شاء إلى هذا المصدر .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٢٦ .

تلبث هذه العلاقة أن تحولت إلى علاقة الفكر والوثن في صورة «الزعيم» صانع المعجزات السياسية ، وصاحب التعاويذ الجديدة ، في صورة أوراق الانتخاب ، وسقطت في مستنقع السياسة ، واحتل الوثن مكان الفكرة من جديد[1] ، إذ تجسدت الفكرة في رجل سياسي فماتت بعد شهر لأن الشخص باع نفسه للاستعمار ، فذبحت الفكرة ، وساد تيار سياسي غوغائي ، وأخذت الحركة تدور إلى الخلف ، وشرعت الأفكار المخذولة تنتقم ، وبدأت سياسة «المطالب» تسود ، فغاب عن الأذهان أن الحق هو صنو الواجب ، وأخذ الكلام يتجه إلى «حقوقنا» بدلا من أن يتجه إلى «واجباتنا» وتحوّل الشعب إلى قافلة عمياء وقطيع انتخابي منحرف عن الفكرة ، فتاه في متابعة الوثن ، وصار العالم الثقافي تحت قيادة سلطة الأوثان .

وإذا اتخذ الشخص مثلا أعلى ، وجسدّت فيه الفكرة ، فذلك يؤدي إلى خطر أن تحسب أخطاء هذا الشخص على المجتمع ، ويقع وزر جميع انحرافاته على الشعب ، وقد أدى هذا إلى أضرار كثيرة لحقت بالفكرة الإسلامية حينما تمثلت وتجسمت في أشخاص ليسوا أهلا لحملها ، وقد حذّر القرآن من هذا في قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ آل عمران ، آية ١٤٤ .

ويذهب مالك بن نبي إلى أن إجلال «رجل القدر» مثل إجلال «الشيء الوحيد» منتشر في العالم الإسلامي الحاضر ، وأدى ذلك إلى إفلاس فادح لسياسات عديدة ، وقد استغل الاستعمار هذه الظاهرة في مجال الصراع الفكري ، وفي الشؤون السياسية فقاوم الفكرة بالصنم ، وحقق نجاحاً باهراً في الخدع السياسية التي مارسها في العالم الإسلامي ، مستغلاً أحياناً أشخاص المثقفين أنفسهم ، وذلك بسبب أن الفكرة في المجتمع الإسلامي عزلي من

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٢٨ - ١٢٩ .

سلاحها ليس لها قيمة في حد ذاتها ، وتجد المثقف المسلم أقل الناس اقتناعا بقيمة الأفكار وأثرها الاجتماعي في تقرير مصائر الشعوب .

أما طغيان الفكرة فيكون عند انعدام التكيف في البلاد الإسلامية بحيث يتولد عن الأفكار التي في الكتب طغيان في مواقف تدعو أحياناً إلى السخرية ، فقد أخذ أستاذ في إحدى محاضراته في تركيب الأدوية يجهد نفسه ، في وصف نبات بدلا من أن يمد يده من النافذة ، ليقطفه من حديقة الكلية ، ويقدمه إلى الطلبة حيا واضحا . لقد كان يبحث عن النبتة في الكتاب أثناء محاضرته ، بينما كانت نامية تحت نافذة قاعة المحاضرات[1] .

ويشير مالك بن نبي إلى أن العالم الثقافي في المجتمع الإسلامي اليوم لا يعاني من صراع «الفكرة» مع «الشيء» أو مع «الصنم» فحسب وإنما ينبغي له أن يواجه أيضاً معركة أخرى ، يفرض عليه منطق الفعالية أن ينتصر فيها ، لأنه كي يمكن له أن يقاوم الأفكار الفعالة الخاصة بمجتمعات القرن العشرين كله المتحركة ، يتعين عليه أن يستعيد فعالية الفكرة الإسلامية لتأخذ مكانها بين الأفكار التي تصنع التاريخ[2] وتبني الحاضرة ، لأنه لا يكفي أن ندعو إلى قدسية القيم الإسلامية ، والبرهنة على صحتها وإنما يجب أن نضفي عليها ما يجعلها تواجه العصر ، وأن يثبت المجتمع الإسلامي اليوم أنه في إمكانه أن يوفر لكل فرد فيه لقمة العيش اليومية[3] ، إن القضية في البلاد الإسلامية ليست قضية موارد بقدر ما هي قضية مناهج أي أفكار[4] .

قد اجتمع في محيط المجتمع الإسلامي نوعان من الأفكار : الأفكار الميتة ، والأفكار القاتلة ، فأما الأفكار الميتة فيعرفها مالك بن نبي بأنها هي التي تنفصل

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٤٦ - ١٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١٤٩ .

من جذورهـا ، وتصبـح أفكـاراً ميتـة في موطنهـا ، وهي نتيجة لتركة ثقافية لم تصفّ ، فهي أفكـار خذلت أصولها ، وانحرفت عن نموذجها المثالي[1] . أما الأفكار القاتلة فهي التي فقدت شخصيتها وقيمتها الثقافية ، نتيجة لانقطاعها عن جذورها التي بقيت في محيطها في عالمها الثقافي الأصلي[2] ، فهي قاتلة لأنها تركت جذورها في عالم ثقافي آخر استوردت منه خطأ[3] .

ويرى مالك بن نبي أن الأفكار التي يصفها بالموت هي أكثر قدرة على القتل من الأخـرى ، لأنها بمثـابة الفيروس الذي يخرب نسيج الكيان الإسلامي ، بتخدير حوافزه ، وما لم نقم باستعمال طريقة « باستور Pasteur » وأسلوبه العلمي في المجال التربوي للقضاء على الظاهرة المريضة في العالم الثقافي الإسلامي فإن هذه الأفكـار ستواصل تخزينها في المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وضرب مثلا لذلك بما حدث لمصدّق الذي دمرته فكرة ميتة تتمثل في الكاشاني الذي كان بمثابة فيروس داخلي أفسد على الشعب الإيراني تجربته ، فهزم مصدق من قابلية للاستعمار تحركت في شخص الكاشاني باسم الدين[4] .

وقد تمتص الفكرة الميتة الجرثومة الأجنبية ، فنحن لا ينبغي أن نتساءل لماذا تنطوي الثقافة الغربية على عناصر قاتلة ؟ وإنما يجب أن نسأل لماذا تقصد النخبة الإسلامية إليها فتختارها وتأخذها بالذات ؟ والواقع أن نفسية ما بعد التحضر هي التي تقرر الاختيار الإرادي أو اللاإرادي ، لأنه ليس كل ما في ثقافة الغرب قاتلا ، لأن عالمها الثقافي مايزال يبث الحياة في حضارة الغرب ، التي ظلت تقرر مصـائـر النـاس . فالعنصر القاتل هو نوع من «النفاية» أي الجانب الميت في الحضارة ، ويؤدي امتصاص هذه «النفايات» إلى تعفن فنعتقد أن ذلك هو الثقافة

---

(١) المصدر نفسه ، ص٢٠٠ ، ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٢٠٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٢٠١ .

الغربية ، ولذلك وجدنا قافلة من المفكرين في المجتمع الإسلامي تمثل طابورا خامسا لإحدى النفايات الأجنبية ، أي لإحدى السياسات الأجنبية[1] . فالمشكلة في واقع الأمر لا تتعلق بطبيعة الثقافة الغربية ذاتها ، بقدر ما تتعلق بطبيعة علاقاتنا الشاذة بها[2] ، إذ أننا لم نتوغل في فهم منابع الحضارة الغربية العميقة ، وإنما توقفنا عند صندوق القمامة أي الجانب الميت بها فغابت عن أنظارنا الحقيقة المحسوسة لدى المزارع الأروبي ، والحرفي والعالم والفنان ، الذين يصنعون هذه الحضارة إذْ وضعت أفكارنا الميتة على أعيننا غمامة ، فلم نعد نرى إلا ما هو تافه وقاتل[3] ، فالعملية هاهنا إنما هيَ بمثابة عملية التلقيح الزراعي ، فإن الفرع الذي يضاف إلى الشجرة لا يأتي بثمار تشبه ثمار الشجرة التي ألحق بها ، وإنما يأتي بثمار الشجرة الأم .

وحيث إن الحلول التي توضع لمشكلات المجتمع الإسلامي مستعارة من بلاد متحضرة ، فإذا نقلت فإنها لا تحدث التأثير الذي لها في وطنها ، إذ تفقد فاعليتها بمجرد انفصالها عن محيطها الاجتماعي الذي ولدت فيه ، فالحل الاجتماعي يشتمل على عناصر لا توزن في ظروف بلاد المخطط أو الخبير ، كما في مخطط «شاخت» الذي وضعه لأندونيسيا ففشل ، وأوضح مالك بن نبي هذا بمنهج الكيمياء فالبلد إذا عرف لأول مرة مثلا معادلة الماء : هيدروجين + أكسجين = ماء . فمعرفته صحيحة من حيث التحليل ، ولكن إذا أراد تطبيقها في صناعة الماء بالتركيب ، فإنه لا يحقق شيئاً ، لأنه جهل عنصراً جوهرياً لابد منه عند التطبيق ، وهو المركّب الذي لم تفصح عنه صيغة المعادلة ، فهي إذن غير قابلة للتطبيق عند من لا يجد في معرفته ما يكملها[4] .

---

(١) المصدر نفسه ، ص٢٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٢٠٥ .

(٤) ميلاد مجتمع ، ص١٣٢ - ١٣٣ .

ومعنى هذا أنه ينبغي أن نهيىء في المجتمع الإسلامي الظروف اللازمة لتطبيق الحلول الملائمة لمشكلاته الاجتماعية بنجاح ، وهذا شرط ضروري في كل الحلول التي يمكن أن نضعها لمواجهة المشكلات ، سواء كانت قد تصورناها بأنفسنا أو كانت مستوردة جاهزة[1] .

المجتمع الإسلامي اليوم عرضة لانتقام النماذج المثالية الخاصة بعالمه الثقافي ، ولانتقام الأفكار التي استوردها من الغرب دون مراعاة الشروط التي تصون قيمتها الاجتماعية ، وهذا يؤدي إلى انخفاض قيمة الأفكار المكتسبة ، وتنتج عن ذلك أضرار كبيرة على النمو الأخلاقي والمادي للعالم الإسلامي[2] ، ومعنى هذا أن العالم الإسلامي فقد اتصاله بالنماذج المثالية الخاصة بعالمه الثقافي الأصلي ، ولم يتمكن بعد من إقامة الاتصال الحقيقي مع عالم الغرب الثقافي ، وأنه يعاني من انخفاض مزدوج للقيم الأصلية والمكتسبة معا[3] .

إن العملية الأولى في خطة النهضة هي إعادة تنظيم طاقاتنا الاجتماعية وتوجيهها وتحقيق هذا هو الشرط لتكون الجهود في النهضة جهودا فعالة[4] ، على أن يكون التوجيه القرآني حقيقة عاملة مؤثرة ، لا على أنه مجرد مفاهيم يدرسها ويعلمها الفقهاء ، وقد بيّن هذه العملية التربوية في كتابه ميلاد مجتمع . ويعبّر عن المشكلة التي تواجه المسلم اليوم الأثر المروي عن الإمام مالك «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» .

ومعنى هذا أن المجتمع الإسلامي في حاجة أكيدة إلى إعادة تنظيم طاقته الحيوية ، وتوجيهها ، وتحديد رسالة المسلم على نور من الحقيقة القرآنية ، التي يجب أن يتصل بها قلب المسلم من جديد ، كأنها نزلت عليه[4] ، ليواجه

---

(١) مشكلة الأفكار ، ص٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٢٠٧ .

(٤) ميلاد مجتمع ، ص١٣٨ .

مسؤوليته في التاريخ باستقلال أخلاقي ، يحتفظ به في كل الظروف ، ويكون ذلك في صورة إجراءات تربوية عملية ، وفي صورة ممارسة على المستوى الإسلامي[1] .

فمشكلة الإقلاع الاقتصادي في العالم الإسلامي مثلاً لا ترجع إلى قضية الإمكان المالي ، ولكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية أي الإنسان والتراب والوقت في مشروع تحركه وتدفعه إرادة حضارية ، لا تتردد أمام الصعوبات ، ولا يستولي عليها الغرور والاستعلاء عن وسائله البسيطة التي في حوزته ، ولا يتوقف في عمله على حفنة من العملة الصعبة ، إذ أننا إذا اخترنا أسلوب التنمية الرأسمالي فإننا نكون قد وضعنا نهوضنا الاقتصادي تحت رحمة الغير ، في المؤسسات المالية العالمية[2] .

إن من أسباب تعثر الفكر الإسلامي أن صعوباته تنشأ من طبيعة موقفه من الأشياء لا من طبيعة الأشياء نفسها ، فيحصر نفسه مثلا في مجال الاقتصاد في الاختيار بين الموجود من المناهج الاقتصادية ، ويغلق باب اجتهاده ، الذي يمكن أن يكتشف به طريقاً آخر ، ولذلك أصرّ على الأخذ بمسلمة أن النشاط الاقتصادي لا يتصور بدون استثمار مالي ، بالإضافة إلى التقليد في الحاجات بدل التقليد في الوسائل ، فالمسألة ليست في الاختيار بين آدم سميث ، وبين ماركس ، بقدر ما هي تطعيم ثقافي للمجتمع الإسلامي ليتمكن من توظيف إمكاناته الذهنية والعضلية ، لأن الديناميكية الاقتصادية مرتبطة بحقيقة إجتماعية ثقافية ، ويرى أن الزراعة والمواد الأولية هما ركيزتا الاقتصاد الإسلامي ، في الظروف الراهنة ، وهما في الوقت نفسه وسيلة بعثه على العموم .

إن محور طنجة - جاكارتا هو محور المواد الأولية ، أما محور واشنطن - موسكو فهو محور الصناعة ، ويقرر مالك بن نبي أن الإمكان الاجتماعي واستثماره هو

(١) المصدر نفسه ، ص١٤٨ .

(٢) المسلم في عالم الاقتصاد ص٨٢ .

الذي يقرر مصائر الشعوب في هذا المجال ، أما حصر الإقلاع الاقتصادي في الاستثمار المالي ، والاعتماد على الخبراء الأجانب ، والاستسلام إلى إدارة الرأسمال ، فإنه لا يؤدي إلى النهوض .

ويرى أن شرط الديناميكا الاقتصادية في مسلمتين :

١ - لقمة العيش لكل فم .

٢ - العمل واجب على كل ساعد[١] .

مع كافة الشروط النفسية والاجتماعية التي تؤدي إلى الإقلاع .

إذا تحول المجتمع الإسلامي إلى « ورشة » فإنه سرعان ما يكتشف أن الامكان الذي ينتظره من غيره لتغيير مصيره هو في واقع الأمر ببلده[٢] . فالإنسان هو القيمة الاقتصادية الأولى ، وأن مبدأ الاتكال على الذات أي مبدأ الاستثمار الاجتماعي من الإنسان والتراب والوقت المتوفر في كل مكان ، هو سبيل التقدم الاقتصادي[٣] .

فليس أمام العالم الإسلامي لتغيير أوضاعه الاقتصادية إلا تطبيق خطة تنمية تفتّق أبعاده النفسية ، وتخلصه من تركة ما بعد الموحدين ، من خرافاته ، وعقده ومسلماته الوهمية[٤] ،

فمن علامات التخلف أن تكون الحالة الاجتماعية التي يكون عليها إنسان ما قبل الحضارة تجعله يضع مشكلاته في حدود الأشياء[٥] . ويرى أن العلاج الجذري لمشكلات التخلف ليس في مواجهة المشكلات بوسائل جاهزة أنتجتها حضارة شقت لنفسها طريقها ، وفارقت المرحلة البدائية المتسمة بنفسية الشيئية ،

---

(١) المسلم في عالم الاقتصاد ، ص٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٩٠ - ٩١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٩٢ .

(٥) تأملات في المجتمع العربي ، ص٧١ - ٧٢ .

ومنطق الأشياء ، وإنما تكون مواجهتها بإنشاء حضارة توظف الطاقات الاجتماعية الأولية الموجودة ، مهما تكن الظروف ، وتنشىء تدريجياً وسائلها التقنية ، بقدر ما يتخلص المجتمع من رواسب ما قبل الحضارة وعوائقه[1] .

ويؤكد مالك بن نبي أشد ما يكون التأكيد أن الحل يكون في نطاق الواجب أي الإنتاج لا في نطاق الاستهلاك ، كما يبدو من هذه المتراجحة التي وضعها للتعبير عن الواجب والحق أو عن الانتاج والاستهلاك في حياة المجتمع على النحو التالي :

الواجب + حق ≤ صفر

فإذا اعتبرت هاتان القيمتان السالفتان قيمتين اقتصاديتين فإنهما تترجمان على هذا النحو :

إنتاج + استهلاك ≤ صفر

ويلاحظ هنا كيف تترابط القيمة الاقتصادية والقيمة الأخلاقية ، فإذا نظرنا إلى هذه العلاقة الأخلاقية الاقتصادية واحتمالاتها الثلاثة فإن المجتمع هو الذي يحقق إحداهما تبعا لاتجاهه الثقافي ، فإذا ركزنا على مفهوم الواجب ، فإن المعادلة الاقتصادية تكون إيجابية بفائض الإنتاج على الاستهلاك ، وإذا استوى الطرفان فيكون التعادل ، وتكون سلبية إذا كان الاستهلاك أكثر من الإنتاج وأرجح ، ففي الحالة الأولى يمكن للمجتمع أن يستثمر فائض إنتاجه في الأنشطة المقبلة ، وبذلك يكون مجتمعنا ناميا ، وفي الحالة الثانية يكون المجتمع راكدا خاملا لا يتحرك ، وأما الحالة الثالثة فالمجتمع فيها آخذ في الانهيار .

وتحويل التركيز من الاستهلاك إلى الانتاج لا يأتي تلقائيا ولا يمكن أن يتحقق إلا بصراع من العوائق والنزاعات التي تنمّي الأنانية ، أي بتغيير ثقافي جذري . فالعالم الإسلامي يواجه الآن حالة طوارىء تفرض عليه أن يتخذ قرارات صارمة

---

(١) المصدر نفسه ، ص٧١ - ٧٢ .

في المجال الاقتصادي ، آخذا بالاعتبار الضرورات الداخلية والخارجية .

وإذا كانت أوروبا تكتلت في القرن الحادي عشر للزحف الصليبي ، وتجمعت في القرن التاسع عشر من أجل ميثاق بسمارك الاستعماري للزحف الاستعماري ، فإنها عادت الآن إلى تكتل جديد باسم «السوق المشتركة» للوقوف في ظاهر الأمر أمام الاقتصادي الأمريكي والياباني ، ولكنها في الواقع تجمعت من أجل الزحف الاقتصادي على مناطق نفوذها الاستعماري السابق ، ليكون وجودها حاضرا من جديد ، بوسائل اقتصادية ، ولا يقابل هذا الحضور الجديد بالرفض ، وإنما بالرضا والتعاقد المقبول[1] .

في استطاعة المجتمع الإسلامي أن يعيد وظيفته الاقتصادية ، وبوسائله الموجودة بيده ، منذ الآن ، وبإمكانه استعادة العقول المهاجرة فتتحد العقول والأيدي والأموال أيضا في مشروع شامل لمواجهة الظروف الاقتصادية العالمية ، ولإنشاء حلقة اقتصادية كاملة يمكنه أن يستغني عن غيره إذا دعت الضرورة إلى ذلك . وأن أسباب اتصاف سلوك المسلمين باللافعالية في أفكارهم في المجال الاقتصادي بالنسبة لأفكار غيرهم ، إنما هي أسباب مرحلية عرضت له من طبيعة المرحلة التاريخية الحالية ، ولكن عليهم أن يتخلصوا منها في أقصر مدة ممكنة ، بالوسائل التي يفرضها تسريع التاريخ ، وذلك بتوحيد الإمكانات والحاجات لتحقيق شروط الاكتفاء الذاتي .

الفكر الإسلامي مدعو لخوض معركة كبرى ، لمواجهة تحدي عالم الاقتصاد ، وعلى المسلم أن يخوضها حرا ، غير مطأطىء رأسه للعجل الذهبي ، ولا أمام زخرف القول الماركسي ، وإذا كان التخلف كسادا في الطاقات الاجتماعية ، فإن القضية ليست قصورا في الإمكان ، بقدر ما هي قصور في التصرف والسياسة والتخطيط .

---

(١) المسلم في عالم الاقتصاد ، ص١٢٠ .

ولا ينبغي أن ننسى الإشارة إلى ما اهتم به مالك بن نبي اهتماما خاصا ، وهو الصراع الفكري الذي يعتمد بالاضافة إلى الأخطاء الداخلية الناشئة عن طبيعة الثقافة في المجتمع الإسلامي على توليد أخطاء أخرى ، لقتل الفكرة التي تبدو أنها يمكن أن تحرك المجتمع الإسلامي إلى استقلاله الفكري ، والاقتصادي ، أو ينحرف بها عن هدفها ، إذا امتنع عليه قتلها ، في غموض وفعالية ويقول مالك بن نبي : وإذا كان عالم النفس يجري تجاربه على حيوانات صغيرة كالكلاب والفئران ، فإن الاستعمار يجريها على دبلوماسيين ورجال سياسة وعلماء[1] . ولذلك نجد مالك بن نبي دعا إلى أن تقوم في العالم الإسلامي رابطة من المثقفين لكشف هجمات الاستعمار الجديدة على الجبهة الفكرية[2] ، حتى يمكن أن تتأسس المفاهيم والآراء في عالم الأفكار المتماسك ، ولا تبقى مجسدة في عالم الأشخاص ليستخدمها الاستعمار للتأثير على شؤوننا السياسية ، بناء على خصائص الحقائق النفسية الحالية في بلداننا ، لانتهاج سياسة التفتيت في العالم الإسلامي ، وبذلك تسير المعركة دون رادار ، وتؤدي بنا إلى التدمير ، بسبب هذه الأخطاء المولدة[3] ، وذلك كله إنما يتم بإزالة الأسباب النفسية ، الاجتماعية التي أدت إلى هذه الأوضاع ، بسبب طغيان « الشيء » أو « الشخص » وبذلك تبسط الأفكار سلطانها على عالمنا الثقافي ، وتسترد تقديراتنا عموما وفي السياسة خاصة طابعها المنهجي الشامل ، ولا تبقى الأشخاص أو الأشياء هي التي تحكم عالمنا الثقافي ، إذ التعامل مع الوثن أسهل من التعامل مع الفكرة ، وهذه حقيقة يعرفها الاستعمار وأتباعه جيداً ، ولذلك تشن حروب طاحنة على الأفكار ، حتى لا تكون لها القيادة في المجتمع ليرشد وينضج ، ويحصل على استقلاله الفكري .

---

(١) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ص١١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٢٦ .

(٣) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص١٦٦-١٦٧ .